حِجَاجيّة الاستِعَارة في الخطابات اللّغويّة

أ. صلاح الدين يحي
جامعة مولود معمري، تيزي- وزو

إنّ لكلّ لُغة من اللّغات الطبيعيّة خطابات متنّوعة تتنوّع بتنوّع الوظائف اللّغويّة ومقاصد المتكلمين وتأخذ الخطابات أشكالا متنوّعة بتنوّع اللّغات الطبيعيّة والمُنعكس التأثيريّ المُوّجَه إلى المتلّقي قصد التأثير فيه أو إقناع الذّات أو في إقناع المُتلقي، ويأخذ الخطاب في اللّغة العربيّة نوعين من الخطاب خطاب شعريّ وخطاب نثريّ لذا تحمل اللّغة بصفة ذاتيّة وجوهريّة وظيفة حجاجيّة.

ولكلّ خطاب من الخطابات آليّة تأثيريّة تعدُ خاصيّةً من الخصائص ذاتُ أهميّة بالنّسبة للخطاب وللّغات الطبيعيّة، ومن الآليات الجوهريّة للخطاب اللّغويّ الحّجاج وباعتبار اللّغات الطبيعيّة في جوهرّها خطابات تأثريّة، ولا ريب من أن يتضمن الخطاب الحّجاج بصفته المجازيّة، وللحجاج استعمالات مقاميّه والحّجاج فعل ملازم لكلّ خطاب، والحّجاج آلية تهدف إلى التّأثير والإقناع والاستعارة من الآليات الجوهريّة للخطاب اللّغويّ الحّجاجيّ، والتي تتميّز بها اللّغات الطبيعيّة، ولقد نظر الدّارسون إلى الحّجاج على أنّه عبقريّة الإبداع اللّغويّ، والحجاج لا يَفْقَهُهُ إلا من كان ذا معرفة موسوعيّة على ما يَحمِلُه من مضامين جوهريّة وعلى ما يَحمِلُه من آليات لُغويّة متنوّعة تأثيريّة.

وقد أخذ الحجاج نصيبًا وافرًا من الدّراسة والعنايّة في العهد الأخير؛ حيث كانت الدعوة للبلاغة الجديدة محاولة لدّراسة الخطابات اللّغويّة باختلافها، خطابات اللّغة العاديّة (اليوميّة)، وخطابات اللّغة الراقيّة (الأدبيّة)، وأصبحت تتَسع لتكون علما

واسعا يشمل حياة الإنسان كلّها في المجتمع، وانبثقت نظريّة الحجاج في اللّغة من داخل نظريّة الأفعال اللّغويّة.

وكانت المحاولة الأولى لوصف الحجاج باعتباره آلية تتضمن طرفيّ الخطاب المُخَاطِب والمُخاطَب في ثنائية تفاعليّة بين المخاطبين لحمل المخاطَب على فعل ما، وَيَكُون ذلك من خلال المواد اللّغويّة التي تم توظيفها وتشغيلها لاستنتاج فحوى الخطاب، وباعتبار الكلام هو الخطاب، والخطاب هو الحجاج وأنّ الحجاج هو الصفة المجازيّة وإنّ الأصل في تكوثر الكلام هو صفتُه الخطابيّة بناء على أنّه لا كلام بغير خطاب إذْ حقل الحجاج هو الخطاب، والأصل في تكوثر الخطاب هو صفتُه الحجاجيّة بناء على أنّه لا خطاب بغير حجاج يوصفُ بأنّه طبيعة في كلّ خطاب، والأصل في الحجاج هو صفته المجازيّة. وبناء على أنه لا حجاج بدون مجاز.[1] والأصل في مجموع الكلام هو الخطاب لأنّه لا كلام بدون خطاب، وحقل الحّجاج هو التفاعل بين المخاطبين، والأصل في مجموع الخطاب هو صفته الحّجاجيّة لأنّه لا خطاب بدون حجاج، والأصل في الحّجاج هو المحمول اللّغويّ الموّجه إلى التّأثير.

ويعرف أبو بكر العزاوي الحّجاج بأنّه فعل لغويّ موجه إلى إحداث تحويلات ذات طبيعة قانونيّة أي مجموعة من الحقوق والواجبات، ففعل الحجاج يفرض على المخاطَب نمطًا معينًا من النتائج باعتباره الاتجاه الوحيد الّذي يُمكِن أن يسير فيه الحوار، والقيمة الحجاجيّة لقول ما هي نوع من الإلزام يتعلق بالطريقة التي ينبغي أن يسلكها الخطاب بخصوص تناميه واستمراره.[2]

ويتضمن الحجاج في الأقوال اللّغويّة والاستنتاجات الصادرة عنها فالحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجيّة داخل الخطاب، وبعبارة أخرى يتمثل الحجاج في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضُها هو بمثابة الحُجج اللُّغويّة، وبعضها الآخر هو بمثابة النَّتائج التي تُستنتَج منها، إنّ كون اللّغة لها وظيفة حجاجيّة يعني أن التسلسلات الخطابيّة محددة

لا بواسطة الوقائع (Les Faits) المعبر عنها داخل الأقوال فقط، ولكنها محددة أيضا وأساسا بواسطة بنية هذه الأقوال بنفسها، وبواسطة المواد اللّغويّة التي تم توظيفها وتشغيلها.[3]

والحجاج هو ما يؤدي إلى نتائج معينة تأثيرية على المخاطَب، من خلال تلك المواد اللّغويّة التي تم توظيفها وتشغيلها داخل الخطاب "فالحجاج هو مؤسس على بنية الأقوال اللّغويّة، وعلى تسلسلها واشتغالها داخل الخطاب. ونُوّضح هذا بالأمثلة التاليّة:

– أنا متعب، إذن أنا بحاجة إلى الراحة؛ – الجو جميل، لنذهب إلى نزهة

– الساعة تشير إلى الثامنة، لنسرع؛ – عليك أن تجتهد لتنجح؛

إذا نظرنا في هذه الجمل، فسنجد أنها تتكون من حجج ونتائج، والحجة يتم تقديمها لتؤدي إلى نتيجة معينة. فالتعب، مثلا في الجملة الأولى، يستدعي الراحة ويقنع النفس أو الغير بضرورتها، فالتعب دليل، وحجة على أن الشخص المعني بالأمر بحاجة إلى أن يرتاح ويستريح، ونقول الشيء نفسه عن الأمثلة الأخرى.[4] وتُقدم سامية الدريدي تعريفا للحجاج تركز فيه عن وظيفة الحجاج وهي حمل المتلقي على الاقتناع بما تعرضه عليه أو الزيادة في حجم هذا الإقناع.[5] ويظهر جليا ما يحمله الخطاب من موسوعيّة واسعة بآليات لغويّة، ووسائل متنوعة كآليّة الحّجاج التي تسعى إلى التّأثير في المُتلقي بمسألة ما أو قضية ما أو تزيد من شدّة التّأثير عن طريق الحجاج إلى حمله إلى فعل ما أو تهيئته إليه. والحجاج هو المنطوق المُوّجه إلى الغير قصد إقناعه بالمسألة التي يحق له الاعتراض عليها إذ حدُّ الحّجاج أنّه كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوَى مخصوصة يحقُّ له الاعتراض عليها.[6] ويظهر الحجاج سمة في الخطاب وآلية فيه ووسيلة يتحقق بها الخطاب، والخطاب هو كل منطوق والحجاج هو المنطوق التّأثيريّ من الخطاب ويرتكز كل من الخطاب والحجاج على خاصية جوهريّة أساسيّة بينهما هي المتكلم

المتلفظ بالخطاب، والمتلقي المستقبل للخطاب، والعلاقة التفاعليّة بينهما، هذا ما أدّى بالنّظريّة الحجاجيّة للتّأسيس للبلاغة الجديدة.

ونشير إلى المنظور الجديد للحجاج باعتباره حجة ونتيجة، وهذه المفاهيم أعطيت لها دلالات واسعة ومجردة فالحّجة حسب هذا التصوّر الجديد، عبارة عن عنصر دلاليّ يقدمه المتكلم لصالح عنصر دلاليّ آخر، والحجة قد ترد في هذا الإطار على شكل قول أو فقرة أو نص، أو قد تكون مشهدًا طبيعيًا أو سلوكًا غير لفظي إلى غير ذلك.

والحّجة قد تكون ظاهرة أو مضمرة بحسب السّياق، والشيء نفسه بالنّسبة للنّتيجة والرابط الحّجاجيّ الذي يربط بينهما. ويمكن أن نبين هذا على الشكل التاليّ:

– أنا متعب، إذن أنا بحاجة إلى الرّاحة. – أنا متعب، أنا بحاجة إلى الرّاحة.

– أنا متعب. – أنا بحاجة إلى الرّاحة.

فإذا قارنا بين هذه الأقوال، فسنجد أنّه تم التصريح بالحجة والرابط والنّتيجة في المثال الأول، وتم التصريح بالحّجة والنّتيجة وأضمر الرّابط في المثال الثاني. أما المثال الثالث فلم يُصرَّحْ فيه إلا بالحّجة والنّتيجة مضمرة يتم استنتاجها من السّياق ونجد عكس ذلك في المثال الرابع حيث ذكرت النّتيجة وأضمرت الحجة. وتتسم الحجج اللّغويّة بعدة سمات، نذكر بعضها على سبيل التمثيل لا الحصر:

أ– إنّها سياقيّة: فالعنصر الدّلاليّ الّذي يقدمه المتكلم باعتباره يؤدي إلى عنصر دلاليّ آخر، فإنّ السّياق هو الّذي يُصَيِّرُهُ حُجة، وهو الّذي يمنحه طبيعته الحجاجيّة ثم إنّ العبارة الوّاحدة، قد تكون حجة أو نتيجة، أو قد تكون غير ذلك بحسب السّياق.

ب– إنّها نسبية: فلكلّ حجة قوة حجاجيّة مُعينة، فقد يقدم المتكلّم حجة ما لصالح نتيجة معينة ويقدم خصمه حجة مضادة أقوى بكثير منها، وبعبارة أخرى هناك الحجج القوية، والحجج الضّعيفة والحجج الأوهى والأضعف.

ج- إنّها قابلة لإبطال: وعلى العموم، فإن الحجاج اللّغويّ نسبيّ ومرن وتدريجيّ وسياقيّ بخلاف البرهان المنطقي والرياضي الّذي هو مطلق وحتميّ.

والعلاقة التي تربط بين الحُّجة والنَّتيجة هي التي تدعى العلاقة الحجاجيّة، وهي تختلف، بشكل جذريّ عن علاقة الاستلزام أو الاستنتاج المنطقيّ.[7] فإنّ مفهوم الحجاج لم يعد بالمعيار المفهوميّ الكلاسيكيّ القديم؛ الّذي يعتبر فيه مُرادفًا للمنطق والجدل، والبّرهان، والمنطق الرياضيّ، أو الاستنتاج العقليّ، أو الاستلزام المنطقيّ أو الاستدلال المُستمد من نظام المنطق، فقد أدمج الحجاج في صميم اللّغة ليأخذ مكانة في الأقوال اللّغويّة وفي تسلسلها، وفي اشتغالها داخل الخطاب، والحجاج يكمن في شحن تلك الملفوظات اللّغويّة التي تؤديّ إلى صِنْفٍ مُعين من النتائج المؤثرة في المخاطَب.

وبعدما كانت البلاغة الكلاسيكيّة القديمة بلاغة أدبيّة؛ لأنها تُعنى بالقيمة الجماليّة للخطاب، وأما الاتجاه الجديد للبلاغة المؤسس على التفاعل بين البلاغة والتداوليّة الّذي يعطي البلاغة الأبعاد الجديدة فالحجاج في البلاغة القديمة التي كان التركيز فيها على الحجاج في وظيفته الجدليّة، أصبح في البلاغة الجديدة يأخذ صفة تأثيريّة على المخاطَب.

وتعرف البلاغة الجديدة: بأنّها نظريّة الحِجَاج التي تهدف إلى دراسة التقنيات الخطابيّة، وتسعى إلى إثارة النّفوس، وكسب العقول عبر عرض الحُجَجِ، كما تهتم البلاغة الجديدة أيضا بالشّروط التي تسمح للحجاج بأن ينشأ في الخطاب ثم يتطوّر كما تفحص الآثار النّاجمة عن ذلك التطوّر.[8] والبلاغة الجديدة نظريّة حجاجيّة تهدف إلى دراسة التقنيات الخطابيّة، وتهتم بالشروط والآليات التي يعتمدها الخطاب اللّغويّ من الحجاج.

وأخذ الحّجاج أبعادًا ودَلالات وسِمات واسعة في التّداوليّة المُدمجة والحِجَاج وهذه الأخيرة هي نظريّة دلاليّة تُدمجُ مظاهر التلفّظ في السِّنّة اللّسانيّة (بمعنى اللّسان Langue عند دي سوسّير 1968) وليست مظاهرُ التلفّظ، في بعض

وجوهها، سوى عوامل حجاجيّة تندرج في الأقوال فتُكيّفُ تأويلها وفق غايّة المتكلّم.[9] وفي ظل التداوليّة المُدمجة والحجاج يأخذ لفظ الحِجاجُ (Argumentation) معنيين يفرّق ديكرو بينهما، المعنى العاديّ، والمعنى الفنّيّ أو الاصطلاحي، وفي التّداوليّة المُدمجة والحجاج يأخذ الحجاج المعنى الثانيّ.

الحجاج بالمعنى العاديّ: يعني طريقة عرض الحجج وتقديمها، ويستهدف التّأثير في السامع فيكون بذلك الخطابُ ناجعًا وفعّالاً، وهذا معيار أول لتحقق السمة الحِجَاجيّة، غير أنه ليس معيارا كافيًا إذ يجبُ ألاّ تُهمَل طبيعة السامع (أو المتقبّل) المستهدف. فنجاح الخطاب يكمن في مدى مناسبته للسامع ومدى قدرة التقنيات الحجاجيّة المستخدمة على إقناعه، فضلا عن استثمار الناحية النفسيّة في المتقبل من أجل تحقيق التأثير المطلوب فيه.

الحّجاج بالمعنى الفنّي: فيدلُّ على صنف مخصوص من العلاقات المُوَدعة في الخطاب والمُدرَجة في اللّسان، ضمن المحتويات الدّلاليّة، والخاصّيّة الأساسيّة للعلاقات الحجاجيّة أن تكون دَرَجيّة (Scaliare) أو قابلة للقياس بالدّرجات، أي تكون واصلةً بين سلالم.[10]

وورد تعريف الحجاج عند برلمان وتيتيكاه يعرف المؤلفان موضوع نظريّة الحجاج بقولهما: موضوع الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدّي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم.[11]

ويأخذ الحجاج اللّغويّ علاقة ترتيبية للحجج، وتكون تلك الحجج محددة بالسّلّم الحجاجيّ فهي تختلف في ما بينها بالضّعف والقوة، "والسّلّم الحجاجيّ هو علاقة ترتيبيّة للحجج يمكن أن نرمز لها كالتالي:

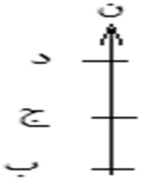

ن: النتيجة، "ب" و"ج" و"د" حجج وأدلة تخدم النتيجة "ن". فإذا أخذنا الأقوال الآتية:

1- حصل زيد على شهادة الثانوية. 2- حصل زيد على شهادة الإجازة.
3- حصل زيد على شهادة الدكتوراه.

فهذه الجمل تتضمن حججًا تنتمي إلى نفس الفئة الحجاجيّة، وتنتمي كذلك إلى نفس السلم الحجاجيّ، فكلها تؤديّ إلى نتيجة مضمرة من قبيل كفاءة "زيد" أو مكانته العلميّة، ولكن القول الأخير هو الذي سيرد في أعلى درجات السّلّم الحجاجيّ وحصول زيد على الدكتوراه هو بالتالي أقوى دليل على مقدرة زيد وعلى مكانته العلميّة. ويمكن الترميز لهذا السلم كمّا يلي[12]:

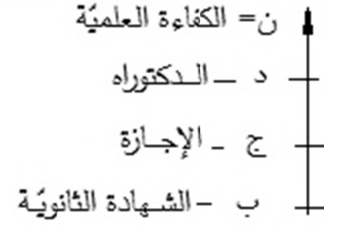

ونلاحظ ترتب الحجج اللّغويّة باختلاف في ما بينها؛ حيث تكون الحجة اللّغويّة (ج) أقوى من الحجة اللّغويّة (ب)، وتَكون الحجة اللّغويّة (د) أقوى من الحجة اللّغويّة (ج)، في حين نعتبر جميع الحجج اللّغويّة تؤدي إلى نتيجة مضمرة وهي الكفاءة العلمية لزيد، وهكذا جل الحجج اللّغويّة التي تستنتج من الألفاظ والمفردات بالإضافة إلى السّياق التّداوليّ.

والقيمة الحجاجيّة تكمن في تحديد السّلّم الحجاجيّ الّذي ينبغ أن يُوضَع عليه الفعلُ الّذي يحدّده الملفوظُ.[13]

ويعني مفهوم السّلّم الحجاجيّ مفهومًا آخر هو الاتجاه الحجاجيّ؛ بمعنى إذا كان قولٌ ما يمكن من إنشاء فعل حجاجيّ، فإن القيمة الحجاجيّة لهذا القول يتم تحديدها بواسطة الاتجاه الحجاجيّ، وهذا الأخير يكون صريحا أو مضمرًا. فإن كان

صريحًا يدرك بواسطة بعض الروابط والعوامل الحجاجيّة، ويكون الخطاب بها معلمًا، فإن كان مضمرا فإن الخطاب غير معلمًا فإن التعليمات المحددة للاتجاه الحجاجيّ تستنتج آنذاك من الألفاظ والمفردات بالإضافة إلى السّياق التّداوليّ والخطاب العام.

أولا: الأصول الأولى للاستعارة في المنظور القديم: شغلت الاستعارة حيزا كبيرا من الدّراسات الغربيّة والعربيّة القديمة، وكان اهتمام الباحثين والدّارسين فيها على اختلاف مشاربهم وتنوّع مناهجهم وتباين أهدافهم، وهذا منذ فجر الدّراسات اللّغويّة إلى اليوم رغم ما عرفته العلوم اللّغويّة من تحوّل وتطوّر، مما يُحتم على الباحث بيان الطريق الذي يسلكه في تناوله الاستعارة، ولقد ظهرت الأهميّة البّالغة لهذه المسألة، ولا سيما في الدّراسات اللّغويّة، والبلاغيّة، والتّداوليّة والحجاجيّة والفلسفيّة، واللّسانيّة، والنّقديّة، وهذا ما جعل الآراء في الاستعارة تختلف اختلافا واسعا مما أدى في الأخير إلى اعتبارها مسألة معقدة لدى الدّارسين، وكانت الاستعارة أكثر المواضيع تناولا من طرفهم، وسنرى كيف أصبحت الاستعارة موضوع بحث بين القدماء والمعاصرين، وباعتبارها حلقة وصل بين هذه العلوم وممّا بوّأها المنزلة الساميّة والدّرجة الرفيعة في الدّراسات المعاصرة.

1- **الاستعارة في الدّراسات الغربية القديمة (عند أرسطو):** تعتبر الاستعارة من المسائل التي عنيّت بالدّراسة قديما لما لها من أهمية في الحياة الإنسانيّة، ولما لها من علاقة وطيدة بالعلوم الأخرى، "فقد تناول أرسطو الاستعارة في موضعين من كتاب الخطابة، فقد تحدث عنها في باب الشاهد الّذي فرّعه إلى ثلاثة أجناس وهي: الشّاهد الواقعيّ، والشّاهد الصّناعي والشّاهد الخرافي، وفي هذا الموضع يعتبر الاستعارة مقوّما حجاجيا، كما تحدّث عنها في معرض كلامه عن الأساليب ليعتبرها محسنا لفظيا. "تعتبر الاستعارة عند أرسطو مقوّما حجاجيا، بمعنى تزيد من شدّة الحجاج في الإقناع والتأثير، وكما تحدث عنها باعتبارها محسنا لفظيا في حديثه عن الأساليب.

وأما في إطار حديثه عن بنية اللّغة الاستعاريّة فقد ربط أرسطو الاستعارة بعدّة مفاهيم على النّحو التاليّ:

1/1- الاستعارة والتّخييل: إنّ أهمّ ما تحدّث به أرسطو عن الاستعارة هو أنّه أدخلها ضمن المحاكاة (التّخييل)، لأنّها السّمة التي تخرج الخطاب من المألوف إلى الغريب، وهذا التّخييل هو جوهري في الأقاويل الشعريّة لأنه يحقق الالتذاذ والمتعة النّفسيّة.

2/1- الاستعارة والنّقل: يعرف أرسطو الاستعارة باعتبارها نقلاً أو تغييرًا، كما يقسم هذا النّقل إلى نقل بسيط ويخصّه بالخطابة، ونقل مركب يخصّ الشّعر، أمّا عن الوظيفة الجماليّة لهذا النقل فيجعلها ثلاثة وظائف مرتبطة، وهي الإفهام من خلال كونها تزيد الوّضوح، والتّغريب العائد إلى مخالفتها المألوف والمتعة التي ترجع إلى التّخييل الذي يكسب القول لذةً ومتعة، وهذه الوظائف –حسب أرسطو – لا يمكن أن تأتي مجتمعة في شيء خلا الاستعارة.

3/1- الاستعارة واللّفظ: يحصر أرسطو الاستعارة في اللّفظ، وهذا واضح من خلال تناوله إياها في باب العبارة، فيجعلها قائمة على المحور الاستبدالي للغة لأنّها تتعلق بكلمة واحدة لها معنيان؛ حقيقي ومجازي، وتحصل الاستعارة عند استبدال لفظة مجازية بلفظة حقيقية، وفق مبدأ الاختيار والانتقاء تجمل الاستعارة باللّفظ الجميل، وتقبح باللّفظ القبيح.

4/1- الاستعارة والزّخرف البلاغي: يرى أرسطو أنّ الوظيفة الأساسيّة للاستعارة هي وظيفة زخرفيه فهي لا تملك أي وظيفة معرفيّة، وإنّما دورها جمالي فقط، وهذه هي النّظرة الغالبة على سائر البلاغة التّقليديّة فلقد أجهزت بلاغة المحسّنات على الاستعارة فألحقتها بصفة نهائية بالمقوّمات المحسّناتية الترفيهية والمكتفية بدغدغة الحسّ الجمالي عند المتلقّي، ولعلّ الفكر الوضعي والعقلاني والتّجريبي قد زكّيا هذا التّطرّف وجرّدا الاستعارة من أيّة جدارة علميّة كيفما كانت.

5/1- الاستعارة والمشابهة: تقوم الاستعارة عند أرسطو على المشابهة، لهذا لا يعتبر الاختلاف بينها وبين التشبيه كبيرا، وإنّما يكمن الاختلاف في غياب أداة التّشبيه في الاستعارة وحضورها في التشبيه.[14] كانت نظرة أرسطو لاستعارة نظرة قاصرة في جزئية تقوم بها الاستعارة، وكذلك جل الدّراسات القديم البلاغيّة باعتبارها وظيفة زخرفيّه لا تملك أيّة وظيفة معرفيّة، وإنّما دوّرها يكمن في الحس جمالي فقط ويعتبرها ارسطو أساس العملية التّخيليّة، وهي في هذا الإطار على رأس الصور البيانية الأخرى، أمّا عن الخصائص الأخرى فهي ترسّخ النّظرة الضّيقة للاستعارة من خلال حصرها على اللّفظ دون المعنى وجعلها زخرفاً لفظيًا لا تملك قوّة تأثيريّة ولا تؤدّي وظيفة معرفيّة، وهذا من أعظم المآخذ على تفسير أرسطو للاستعارة وأمّا في ربطه بين الاستعارة والتّشبيه فهناك الفرق الواضح بينهما، غير أنّه يجعل الفارق بينهما غياب أداة التّشبيه في الاستعارة، إذ لا ينكر عاقل الفرق بين الاستعارة والتّشبيه من الاختلاف فالاستعارة تحوي من الخّيال وتملك من الجمع بين المتناقضات ما لا يستطيعه التّشبيه، ففي الخطاب الاستعاري تذوب الفروق بين المستعار له والمستعار منه، وتتحقّق اللّحمة بينهما في الخصائص والصفات، وهذا التلاحم المرسوم من طرف المرسل يجعله في حوار مع المتلقّي، حيث يسعى إلى إنشاء الرّوابط بين المتناقضات وإزالة الفروق بين المتباعدات، وهذا ما جعلها نقطة محيرّة في تاريخ الفكر الإنساني.

ويقسم أرسطو الاستعارة إلى ثلاثة أقسام هي":

1- الاستعارة الجمهوريّة: هي الاستعارة التي صارت متداولة بين الجمهور نتيجة التّكرار وكثرة الاستعمال، إلى درجت أنّها استهلكت وتهالكت، لدرجة أنّها فقدت شُحنتها التأثيريّة، فلا تنتج هذه الاستعارة إقناعا ولا لذة في ذاتها، لأنّها لا تملك قوة حجاجية ولا روحا تخييليّة، نتيجة لافتقادها لعنصر المفاجأة الذي يقصره أرسطو على الغرابة.

2- الاستعارة الشّعريّة: تتكون هذه الاستعارة من الاستعارات المركّبة والاستعارات المخترعة البعيدة التي تنقل القول من الخطابيّ إلى الشّعريّ، وتفشل هذه الاستعارة – في نظر أرسطو- في تحقيق الوظيفة الإقناعيّة.

3- الاستعارة الحجاجيّة: هي التي تهدف إلى إحداث تغيّير في الموقف الفكري والعاطفي في المتلقي، ويشترط لها لكي تؤدي هذه الوظيفة أن تكون:

- بسيطة قريبة واضحة، وأن تكون غير متكلّفة، مألوفة بعيدة عن الغرابة؛

- قليلة، لأنّ الإفراط يخرجها من الحجاجيّة إلى الشّعريّة، ويخرج القول من الخطابة إلى الشّعر؛

- ذاتُ جوّدة وحسن تميّز حتّى تبتعد عن الابتذال المفضي إلى الجمهوريّة.[15]

وتتضح العلاقة الحجاجية لاستعارة عند أرسطو وخاصة عند تقسيمه الاستعارة إلى ثلاثة أقسام الاستعارة الجمهوريّة والاستعارة الشّعريّة، والاستعارة الحجاجيّة وتكمن الاستعارة عند أرسطو في كوّنها تحمل شُحنة تأثيريّة حجاجيّة وظيفتها في تحقيق الوظيفة الإقناعية، والتي تهدف إلى إحداث تغيير في الموّقف الفكري والعاطفي للمتلقي، وهذا ما ركز عليه في الاستعارة الحجاجيّة، وما عيب عليه النظرة الشاملة للاستعارة ضمن الأشكال البلاغية المجازية فلا نكاد نفرق بين الكناية والمجاز والرمز والتشبيه "وأقل هذا الخلط هو الجمع بينها وبين التشبيه وأكثره عدم التمييز بين الوجوه التي تنبني على المجاورة والوجوه التي تنبني على المشابهة[16] وكمّا لا تّتسم الاستعارة في النّزعة الوضعيّة الأرسطيّة باستقلاليتها بقدر ما تعد اصطلاحا نجنيسيا تدرج ضمن الأشكال المجازية باعتبارها" جنسا تكون منه جميع الصور البيانية الأخرى أنوّاعا.[17]

2- الاستعارة في التّراث العربيّ القديم: تعدّ البلاغة من العلوم العربيّة العريقة التي ولع بها المفكرون واللّغويون والفلاسفة وعلماء الكلام على مرّ عصور الفكر العربيّ، وكان مصدر الدّراسات البلاغيّة العربيّة القرآن الكريم وبيانه وإعجازه وفصاحته اللّغويّة، وباعتبار البلاغة أداة صقل الكلام وحسن التأليف تلقفها العديد

من الدّارسين القدامى وكانت البلاغة العِلم المتشعب الذي يأخذ مشاربه من كل العلوم والفنون، والبلاغة العربيّة القديمة تدل على النّضج الفكري والعقلي العربيّ القديم، وكانت البلاغة العربيّة تمثل العقل الموسوعي لكل العلوم حيث نجد في الدّراسات البلاغيّة المعاصرة التّلميحات والإرهاصات في مؤلّفات القدماء، والتي أسست لبناء النّظريات المعاصرة باعتبارها مد للتطور الفكري المعاصر، ونجد البلاغة العربيّة القديمة تُضاهي البلاغة الغربية المعاصرة في أمور كثيرة لا سيما تلك الخاصيّة التّداوليّة التي ترتبط بين المرسل والمتلقيّ، والتي تمخضت عنها الصّبغة الحجاجيّة لكثير من المفاهيم البلاغيّة، وفي المقام الأول الاستعارة، ولقد أخذت النصيب الأوفر من الدّراسات في البلاغة والنقد واللّغة وذلك من أجل استنباط القوة الكامنة فيها التي يستغلها المرسل بغرض إشراك المتلقي في الخطاب، ومن ثّم إلى التّأثير فيه وإقناعه.

يعدّ عبد القاهر الجرجاني رائد علوم البلاغة العربيّة، ومن خلال فكره تبلورت النّظرة الدّقيقة لمختلف مفاهيم البلاغة، ومن أبرز هذه المفاهيم مفهوم الاستعارة الذي سنرى كيف ذهب فيه مذهبا سابقا لأوانه متجاوزا لعصره، وأبرز دليل على ذلك تأثر سائر الصّيحات الدّاعية إلى التجديد بفكر الجرجاني ويعدّ أوّل من تفطّن إلى الوظيفة الحجاجيّة للاستعارة، وهذا راجع إلى تأثره بأساليب الحجاج المتعارف عليها، كالرّد الأقوال والآراء، والإدعاء والإثبات والمعارضة والدّليل والشّاهد والاستدلال وغيرها وهذا واضح من خلال كتاباته التي يرسلها على شكل قضايا مدّعمة بالدّليل والبرهان.

تناول الجرجاني الاستعارة في إطار نظريّة النّظم التي ملكت عليه لبّه، والتي يحتج من خلالها على فضل المعنى على اللّفظ، ويجعل الاستعارة في المعاني وليس في الألفاظ، أي في إطار نظمها وسياقها ليتحقّق فيها ما تطويه من سعة التّصوير ورحابته.[18]

وقد "اعتبر الجرجاني حجاجيّة الاستعارة قائمة على مفهوم الإدعاء فالاستعارة ليست حركة في الألفاظ وإنّما هي حركة في المعانيّ والدّلالات، وهي ليست بديعًا بل هي طريقة من طرق الإثبات الذي يقوم على الإدعاء.[19] وهذا التّصوّر الجديد للاستعارة ظهر معارضًا لتصوّر اللّفظي البديعي للاستعارة في القديم، وكان عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ أو 474هـ) من أشدّ المدافعين عن التّصوّر الجديد فالاستعارة عنده هي ضرب من التشبيه، ونمط من التّمثيل، والتّشبيه قياس والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول وتستفتي فيه الأفهام والأذهان لا الأسماع والآذان.[20] من هنا تعني حجاجيّة الاستعارة فعاليّتها في التّأثير على الأذهان والأفهام، وتعني كذلك نوعًا خاصًا من الاستدلال العقلاني ومن الفضائل المعرفيّة والإدراكيّة البعيدة عن الألغاز والتّعمية.[21] ولقد تفطن الجرجاني إلى فعالية التأثير على الأذهان والأفهام للاستعارة، وكذلك لحجاجية الاستعارة والطرق التي تسلكها لا نهائيّة ومتشعّبة، والتأثيرات التي تملكها غير محصورة "فالاستعارة إذا وقعت موقعها، وأصابت غرضها، أو حسن ترتيب تكامل معه البيان، حتى وصل المعنى إلى القلب، مع وصول اللّفظ إلى السمع واستقر في الفهم مع وقوع العبارة في الأذن، وإلى سلامة الكلام من الحشو غير المفيد[22] ويمكن أن نستخلص من قول الجرجاني الخصائص الجوهريّة للاستعارة والتي ربطها بالنظم؛ حيث تمثلت الأولى بأن الاستعارة لها موقعها من الكلام، والثاني أنّها أصابت غرضها التّأثيري والثالث حسن ترتيب تكامل معه بيان فتحمل الاستعارة ترتيبا متكاملا مع البيان البعيد عن الإبهام، والرابع وصول المعنى إلى القلب مع وصول اللّفظ إلى السمع والخامس إدراك الفهم مع وقوع العبارة في الأذن، والسادس سلامة الكلام من حشو غير المفيد، فالاستعارة هي الكلام المفيد أي الإفادة وهذه حجاجية الاستعارة عند عبد القاهر الجرجاني، وكان بحق المؤسس الأول لنّظريّة حجاجيّة الاستعارة ويعود الفضل له إلى ما وصلت إليه من تطوّر على يد الدّارسين والباحثين المعاصرين، ومّما أدى إلى نتائج مذهلة في عالم الاستعارة.

وركز عبد القاهر الجرجاني على فعل الإدعاء في الاستعارة فيقول: "أنك إذا قلت: (رأيت أسدا) فقد ادَّعيت في إنسان أنه أسدٌ وجعلته إياه، ولا يكون الإنسان أسدًا. وإذا قلت: (إذْ أصبحت بيَدِ الشَّمال زِمَامُها)، فقد ادعيت أنّ للشَّمال يدا ومعلوم أنه لا يكون للريح يَدٌ.[23] يبدوا مفهوم الاستعارة عند الجرجاني أنها ادِّعاء المتكلم إثبات صفة معينة للآخر، ويكون فعل الإثبات هو أساس حصول الإدعاء ويكون القصد في ذلك حصول إثبات الصفة، ويَكون هدف المتكلم وصول معنى المعنى إلى المخاطَب.

واعتبر الجرجاني الاستعارة على أنها ادِّعاء، لأنها ترتبط بالمعنى دون اللفظ وقصد المتكلم في ذلك هو التجوُّز عن طريق الإدعاء، ويقول الجرجاني: "فالتجوُّز في أنِ ادَّعَيْتَ للرجل أنّه في معنى الأسد، وأنه كأنه هو في قوّة قلبه وشِدة بَطْشه وفي أن الخوف لا يُغَامره، والذُّعْرَ لا يَعْرِض لَه، وهذا إنْ أنت حَصَّلتَ، تجوُّز منك في معنى اللفظ لا اللفظ[24] فالتّجوُّز يكون في معنى اللّفظ لا في اللّفظ ذاته ويكون في نقل المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي وذلك ما يتعلق بالاشتغال الذّهنيّ في الفهم والتّأويل وذلك ما يجعل من فهم مجازيّة الاستعارة مرتبط بفهم المواد اللّغويّة المجسدة للخطاب قصد فهم طبيعة الاشتغال الاستعاري كما يتحقق داخل الخطابات عموما و الخطاب الأدبي خصوصا[25] ويتجسد هذا في ما قاله عبد القاهر الجرجاني في معنى المعنى للاستعارة، والتي تتعلق بالتأويل لدى المخاطَب ولا يمكن الوصول إلى المعنى المنشود من الخطاب إلا إذا كان المُخاطِب في سياق يضمن فهم التأويل لدى المخاطَب، فلا تتعلق الاستعارة باللفظ بقدر ما هي تتعلق بمعنى اللفظ. وهذا ما أثار التوّجه المعاصر للاستعارة من المعنى الحرفي إلى المعنى الضّمني "لأن المخاطَب لا يلجأ إلى الأقوال الصريحة للتلفظ بها بل يسعى المخاطَب أو المستمع إلى التفكير في الشيء غير المصرّح به.[26] وقد شغلت الاستعارة مجالا كبيرا لدى السّكّاكي (ت 626 هـ)؛ حيث خَص فصلا كامل للاستعارة أما حدها فهي: أن تذكر أحد طرفي التّشبيه وتريد به الطرف الآخر

مدعيًا دخول المشبه في جنس المشبه به، دالا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به، كما تقول: في الحمام: أسد وأنت تريد به الشجاع، مدّعيا أنّه من جنس الأسود، فتثبت للشجاعة ما يخص المشبه به، وهو اسم جنسه، مع سد طريق التّشبيه بافراده بالذكر أو كما تقول: إنّ المنية أنشبت أضفارها، وأنت تريد بالمنية: السبع، بادعاء السبعية لها، وانكار أن تكون شيئا غير سبع، فتثبت لها ما يخص المشبه به، وهو: الأضفار. وسمي هذا النوع من المجاز استعارة لمكان التناسب بينه وبين معنى الاستعارة.[27] وانطلق السّكّاكي لفهم المعاني والدّلالات اللّغوية من حقل تداولي يقوم على الاستعمال، فنظر إلى معنى المجاز أنّه كل انتقال من معنى إلى آخر، لما بين المعنيين من تعلق. فالفرق بين الحقيقة والمجاز يكمن في القرينة ومن ثم قد تدل كلمة (أسد) على الحيوان المفترس دون الحاجة إلى قرينة في الاستعمال، ولكنها تحتاج إلى قرينة للإشارة إلى الرجل الشجاع فالاستعارة باعتبارها مجازا تقوم على الجمع بين شيئين أو فكرتين انطلاقا من العلاقة التشبيهية من أجل تقديم صورة جديدة، أو مخترعة تتدخل فيها عملية التّخييل والإبداع، والاستعارة الانتقال من المعنى الحرفي إلى المعنى الضّمني، من الظاهر إلى الخفي المضمر.

ويمكن أن نستنتج أن السّكّاكي قد سار على النّمط الذي سار عليه عبد القاهر الجرجاني، ويمكن أن نستخلص أن علمائنا القدماء رأوا أن الاستعارة ليست زخرفا لتزيين الكلام، ولكنها فن لغوي تداولي يعطي للقول قوته الدّلاليّة وإصابته النفسيّة تأثيرا وانفعالا واستحسانا، وهذا الرأي يلتقي مع ما وصل إليه المعاصرون في نظرياتهم المعاصرة.

ثانيا: الاستعارة في الدّراسات المعاصرة:

قامت الدّراسات المعاصرة بالتركيز على الدّراسات البلاغية القديمة؛ حيث أدت هذه الدّراسات إلى سيل من النّظريات ووابل من العلوم، وقد انصبت الدّراسات والجهود المعاصرة في الدّرس البلاغي على أبرز المفاهيم البلاغية التي أَرّقت

القدماء ولفتت انتباه المعاصرين وهي الاستعارة، هاته التي صارت بحقّ نقطة محيّرة لدى الكثير من الدّارسين، وبخاصة عندما أكتشف طاقتها الحجاجيّة ومكوناتها الابداعيّة واسرارها التأثيريّة.

1- حجاجية الاستعارة في الفلسفة المعاصرة:

تعدُّ الفلسفة من العلوم العريقة القديمة قدّم التفكير الإنسانيّ، وتعدُّ البلاغة كذلك من العلوم العريقة القديمة قدّم التفكير الإنسانيّ، ولطالما كانت البلاغة موضوعا للفلاسفة اليونان؛ حيث كانت الفلسفة أم العلوم، ولا طالما كان الحوار قائما بين الفلسفة والبلاغة، فلا يمكن للخطاب الفلسفة أن يخلص من البلاغة.

لقد ظلت الفلسفة في حاجة دائمًا إلى دعمٍ بلاغيّ يشحن قاموسها ويُفَعلُ تَجاوُزِيَّتِها والبلاغة هي أصل الفلسفة وغايتها، فهي من أسسها واستكمالها[28] وتظهر حاجة الفلسفة إلى القاموس المفاهيميّ للخطاب الفلسفي والبحث عن شكل لغوي يضع حدًا لهيمنة اللّغة الميتافيزيقيّة، ويزيد من قاموس المفاهيمي للخطاب الفلسفي الذي يتناسب مع النّسق التصوّري الباحث عن التّجاوز والتّجديد والنّقد.[29]

والاستعارة تخترق أنساقنا الفكرية والثقافية وتكسح جميع مجالات الحياة دون استثناء، والاستعارة تتواجد في مستوى تفكيرنا، وهي لا تقتصر على اللّغة كون النسق التصوري العادي الذي يسير تفكيرنا وسلوكنا ذا طبيعة استعارية، كما أن اللّغة بطبيعتها وفي الأصل استعارية، إذ تؤسس آلية الاستعارة للنشاط اللّغوي وكل قاعدة أو مواضعة لاحقة تولد بقصد تحديد الثراء الاستعاري.[30]

وفي خضم العودة الكبيرة إلى اللّغة واستكناه طاقتها الفلسفيّة اصطدم الفلاسفة مع مفهوم بلاغي يحوي من الطّاقات الفلسفيّة والإمكانات الحجاجيّة ما يجعله أساسًا في كل خطاب إنسانيّ، وهذا المفهوم هو الاستعارة، التي لطالما ارتبطت بالزخرف البلاغيّ، وهي في الحقيقة ضرورة لغويّة من صميم منطق اللّغة الطّبيعيّة، وفي الخطاب الفلسفي تكون موضعًا حجاجيًا، من خلاله يستطيع هذا الخطاب إيجاد معان جديدة وأماكن أخرى يستثمر فيها حواراته، ويطوّر بها مفاهيمه.[31]

لقد تفطن الفلاسفة لأهمية الاستعارة، فهي الوساطة في عقلنة الخيال فليست الاستعارة مجرد مجاز يحيل إلى فضاء تخييلي في اللّغة، بل هي عمليّة استبدال وتحويل داخل الوعي نفسه، وأما البيان فسلوك انزياحيّ للّغة من خلال الاستعارة وداخل اللّغة نفسها مقصده الفهم والتبيان، فهو بذلك بلاغة لبلوغه مقاصد الإفهام والإبلاغ، ففيه شرح وتفسير وتأويل وفق نموذج الغموض من أجل الوضوح والالتباس من أجل البيان، واللّغز من أجل الحقيقة.[32] بهذا أصبح للاستعارة موقعها الضروري في الخطاب الفلسفي وهذا من أجل الفهم فلا يمكن التّفكير في الاستعارة داخل الخطاب الفلسفيّ بوصفها محسّنا بلاغيًّا، بل بوصفها مكوّنا داخليا من مكوناته... وربّما كانت إحدى ركائزه.[33]

الاستعارة في فلسفة بول ريكور (PAUL Ricoeur):

لقد صبّ بول ريكور كل أبحاثه الفلسفية على البلاغة والنّقد وخاصة البلاغة التي عاد إليها كل العودة، من خلال مؤلفاته المتعدّدة، ويعدّ اهتمامه بالحجاج فارقا بين كتاباته البلاغيّة التي تظهر بصورة ضمنيّة، وتتجلى في المباحث التأويلية من جهة أخرى.

واعتبر الاستعارة تلعب دورًا فعالاً في مختلف الخطابات والأبنية الحجاجيّة وهذا لما تتمتع به من ثراء في تنوّع الدّلالة وتفرّعها "فهي تحتفظ في آن واحد بفكرتين لأشياء مختلفة ونشطة داخل الكلمة والعبارة البسيطة ذات الدّلالة التي هي المحصّلة الأساسية لتفاعلها... وإذا كانت الاستعارة مهارة وموهبة فإنها موهبة فكريّة، والبلاغة ليست سوى انعكاس وترجمة لهذه الموهبة داخل معرفة متميزة[34] والتّحكم في هذه الموهبة يوفّر للمحاججين فرصة التنويع في العبارات والأساليب خاصّة مع هذا التنوّع والتّفرع الكبير للاستعارة. وهذا الثّراء الظّاهر للاستعارة يحقّق أهدافا كبيرة للمتكلّم سواء أكانت ابلاغيّة أم تواصليّة أم ابداعيّة أم حجاجيّة لأنّ نظرية القول الاستعاري لا بدّ أن تكون بالضّرورة نظريّة لإنتاج الدلالة الاستعاريّة للخطاب.[35]

والاستعارة تتنوع في الخطاب الاستعاري بما تتميز به من حركية وحيوية على هذا الأساس كانت الرؤية التي جعلت الاستعارة تتميّز بالحركيّة والحيويّة التي مرّدها إلى تنوّع العلاقات في الخطاب الاستعاري، والتي تتجلى في العلاقة بين عناصر الخطاب ذاتها، والعلاقة بين التأويل الحرفي والتأويل الاستعاري من لدن المتلقي، ثم العلاقة بين المستعار له والمستعار منه[36] يبرُز جليًا ممّا قدمه بول ريكور عن الدّور الحجاجي للاستعارة؛ الذي تستمده من حركيتها وحيويتها، وسعة علاقاتها وتنوع دلالاتها مما يفتح باب العمليات التأويليّة التي تحيط بالنّص وتجعله لا متناهي الدلالة، "وهكذا فالاستعارة غير موجودة في ذاتها بل تتواجد في التأويل ومن خلاله.[37] وبالتركيز على المثالين اللذين قدمهما بول ريكور ليتضح المعنى فحين نقول "غطاء الأحزان" أو "صلاة زرقاء" فإننا نحيل إلى كلمتين تجمعهما علاقة توتر، والجمع بينهما هو الذي يشكل الاستعارة، وهكذا تغدوا الاستعارة عند بول ريكور حاصل التوتر بين المفردتين ولا تتوقف على حدود المفردتين فقط، بقدر ما يتعلق بالتوتر الذي يربط بين التأويلَين المتعارضين للقول وهو الذي يغذي الاستعارة، وأقر بأن انكشاف المفاجأة لا يكون إلا بعد تأويل القول حرفيا، فالأحزان ليست غطاء إن عد الغطاء كساء مصنوعا من قماش، وكذا لا يمكن اعتبار الصلاة زرقاء إن عدا الأزرق لونا. ويؤكد بول ريكور أن الاستعارة لا تتبني على المشابهة، وإنما تنطوي أساسا على اختزال للصدمة المتولدة جراء التقاء فكرتين متناقضتين.

وقد تحدث عما يُدعى بالاستعارات الحية وكذا الاستعارات الميتة، الأولى تتبني على حدة التوتر بين التأويلين الحرفي والمجازي، وذاك ما يشكل خلقا تلقائيا على مستوى الجملة بأكملها جراء انبثاق دلالات بكر وجديدة، لكونها اكتسبت عنصرا اسناديا غير عادي ولا متوقع. بينما الثانية حسب بول ريكور ليست استعارات، ومن أمثلتها "لسان الباب" أو "أرجل الكرسي" والاستعارات الحية تكون في مستواها درجة الاستجابة للتنافر توسيعا جديدا للمعنى على مستوى الجملة بأكملها، وحين تستعمل الاستعارة الحية بكثرة تتحول بالتكرار إلى استعارات ميتة، مما يجعل من المعاني

الممتدة جزءا لا يتجزأ من مادة المعجم وذلك يؤدي إلى تعدد وتضاعف معاني الألفاظ اليومية، إذ لا وجود للاستعارات الحية في القاموس.[38] ويعدّ بول ريكول من أبرز المعاصرين الذين أعطوا الاستعارة بعدا جديدة من حيث التأويل والدّور الحجاجي وكذلك بالابتعاد عن المنظور القديم للاستعارة أخذ كلمة مكان كلمة، والانتقال من معنى بسيط إلى معنى أقرب منه، وأكد بأن الاستعارة ما يشكل خلقا تلقائيا على مستوى الجملة بأكملها، وقد ارتكز في أبحاثه على حجاجيّة الاستعارة.

الاستعارة عند ماكس بلاك (Max BLack): أخذت الاستعارة عند ماكس بلاك تصورا جديدا، فقد ميز في مستوى الاستعارة بين ما يدعى الكلمة البؤرة (Focus) وبين ما سماه الكلمة الإطار (frame) أي باقي الجملة. إذ أكد أن الكلمة البؤرة تتخلى عن بعض من خصائصها لتضاف إليها خصائص أخرى، كما أن الإطار يخضع بدوره لفقدان سمات واكتساب سمات مغايرة جراء التفاعل الذي يحصل بين البؤرة والإطار، فحين نقول: زيد أسد "فإنّ الأسد سيفقد بعضا من خصائصه الحيوانية ليكتسب من جهة أخرى سمات إنسانية، كما أن زيد سيفقد بدوره بعضا من سماته الإنسانيّة، ليكتسب سمات حيوانيّة.[39] ويحصل التفاعل جراء ورود سمات مشتركة بين الفكرتين النّشطين بعدما تتمخض وحدة تشملهما وتكون وليدة ذلك التفاعل، ويتم فيها مراعاة كل من المؤتلف والمختلف، والفكرة التي تنتج عن التفاعل ليست نتيجة عملية إضافة طرف لطرف آخر بقدر ما هي جديدة ومولدة.[40] ركز ماكس بلاك على التداخل الاستعاري بين الفكرتين المختلفتين، وعن ذلك التفاعل الناتج عن تصادم المعاني مركزا على الكلمة البؤرة التي تتخلى عن بعض خصائصها لتضاف لها خصائص أخرى وكما أن الإطار يتخلى عن بعض الخصائص والسمات لتضاف له خصائص وسمات أخرى، وهذا التفاعل الاستعاري الذي تتبادل فيه الأدوار بين البؤرة والإطار، وكما أشار إلى حجاجية الاستعارة مرهون بوعي القارئ وإدراكه لتوسعات الكلمة والتفاعل الاستعاري للكلمتين، وسر الاستعارة يكمن في الربط بين هاتين الدّلالتين.

الاستعارة عند لايكوف جورج وجونسون مارك (Lakoff Georg et Johnson Mark): لقد أبرز كل من لايكوف جورج وجونسون مارك النزعة التجريبيّة بجلاء وهم أصحاب نظريّة الدّلالة المعرفيّة، واللذان تمكنا من كشف أبعاد الايبستيمولوجيّة الموضوعاتيّة، وتتسم الاستعارة في ظل النّزعة التّجريبيّة التّفاعليّة لدى كل من لايكوف جورج وجونسون مارك بما يلي:

– تجمع الاستعارة بين الخيال والعقل، فمن متطلبات ومستلزمات العقل نجد الصياغة المقوليّة الاستدلال، الاستلزام، الاستنتاج، والخيال بدوره يستدعي النظر إلى نوع من الأشياء من خلال نوع آخر مغاير، وهو ما يدعى بالفكر الاستعاري.

– أغلب مقولات فكرنا اليومي استعارية بطبيعتها، ومن مقتضيات تفكيرنا اليومي الاستنتاجات والاقتضاءات الاستعارية، مما يجعل الاستعارة عقليّة خياليّة.[41] وقد أخذت الاستعارة رؤية شاملة ليصبح الخطاب بنيّة كبرى استعاريّة تتفرع عنها استعارات صغرى بمعنى أن النص استعارة محورية تتفرع إلى مجموع استعارات وتحتل الاستعارة موقعا هاما في الخطاب الشعري، إذ يعد الشّعر أعلى أشكال الاستعارة، فهو ينبني عليها ولا يمكنه أن يوجد إلا بوجودها، إنه ينبني بناء استعاريا، كون القصيدة بناء يرتكز هذا البناء على الاستعارة، والآليات التي تؤسس الاستعارة وتقوم وتنمو وتتشعب من خلالها، كون النّص ليس فقط مجرد مجموعة من استعارات جزئيّة صغرى لا تجمع بينها أية رابطة، وإنما يعدّ استعارة كبرى يخضع لقواعد سياقيّة داخليّة، وكذا لقواعد ايديولوجيّة تتمثل في مختلف علاقات التماثل والتخالف التي تقيمها مع عناصر العالم الخارجيّ.[42] ويمكن الاستخلاص بأن القول الاستعاري يعد آلية حجاجية بامتياز، فإذا كانت الاستعارة الشعرية تمتلك السامع أكثر مما ترغمه، فإن الاستعارة الحجاجية تكون أكثر اقتدارا وامتلاكا ويتميز القول الاستعاري عن القول الحرفي في الحجاج بكونه يؤدي عدة وضائف في عملية التخاطب، وعملتي الفهم والتأويل بين المتكلم والسامع، وباعتبار الاستعارة تجمع بين الخيال والعقل، ومن خلال الاستعمال التأويلي للاستعارة

فأساسها الأول في مجال الاستدلال والتأثير والإقناع كأشكال ضرورية في العمليات الحجاجيّة وتكمن حجاجية الاستعارة في تضمنها معنيين المعنى المصرح به والمعنى الضّمني، فالمصرح به هو ظاهر القول، وأما الضمني فهو كل الإمكانيات المختلفة وبهذا الجانب بالضبط يرتبط الحجاج بالمجاز الاستعاري، وهذا الأخير الذي يخلق في المتلقي التأثير والإقناع.

وتكمن حقيقة حِجَاجيّة الاستعارة عندما نعود إلى ما ذكرناه سابقا في الحجاج وعندما نربطها بالسّلّم الحجاجيّ، وقبل الحديث عن القوة الحجاجيّة وعلاقتها بالاستعارة، لا بد من الإشارة إلى مفهوم يرتبط ارتباطا وثيقًا وهو مفهوم السّلّم الحجاجيّ، ويعدّ هذا الأخير مِنَ المَفاهيم الأساسية في النظريّة الحجاجيّة التي ساهمت إلى حد كبير في وصف الآليات الجوهريّة التي تحكم الاشتغال الحجاجيّ للّغة ويمكن تحديد حجاجيّة الاستعارة من خلال السّلّم الحجاجيّ الّذي تكون فيه حجاجيّة الاستعارة (ج) أقوى من (ب) و(د) أقوى من (ج).

ولتحديد حجاجيّة الاستعارة بالسّلّم الحجاجيّ ونعد إلى الأقوال الاستعاريّة، ونأخذ الأمثلة التالية:

1- خالد بن الوليد شجاع. 2- خالد بن الوليد أسد.

إن الملاحظة البسيطة كافية لأن تبين لنا أن القول (خالد بن الوليد أسد) سيرد في أعلى السّلّم بالمقارنة مع القول الآخر، ويفسر هذا بأن القول الاستعاري له قوة حجاجيّة عالية، وسيكون السلم الحجاجيّ الّذي سنحصل عليه على هذا الشكل:

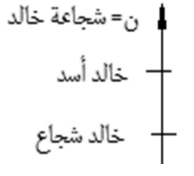

إذن هناك علاقة وثيقة بين مفهوم السّلّم الحجاجيّ ومفهوم القوة الحجاجيّة فالقول الّذي يقع في أعلى درجات السّلّم هو الدّليل الأقوى، وبعبارة أخرى، فإنّ الأدلّة والحجج تكون متفاوتة في قوتها الحجاجيّة، والعلاقة التّرتيبيّة بينهما تكون

باعتبار القوة الحجاجيّة التي لكل دليل. ويمكن أن نقول هذا أيضا عن أمثلة أخرى مثل:

- رأيت إنسانا جميل المحيا. - رأيت شمسا.
- الوقت يمر بسرعة. - الوقت يطير.

يبدو لنا من خلال الأمثلة السابقة أن الأقوال الاستعاريّة أعلى حجاجيًا، من الأقوال العاديّة.[43] ويمكن أن نستخلص في الأخير حجاجيّة الاستعارة والتي تكمن أساسا في النّظريّة الحجاجيّة عامة وبالخصوص في السّلم الحجاجيّ الذي يُحدّد درجات الاستعارة من الضعف إلى القوة، ومستوى التّفاوت في حجيتها، وتكمن حجاجيّة القول الاستعاري الّذي يقدمه المتكلم على أنه الدّليل الأقوى لصالح النتيجة المتوخاة، ونأخذ مثالا أكثر شهرة قول الشاعرة الخنساء عن أخيها صخر: كثير الرّماد.

فإن هذا القول الاستعاري هو الّذي سيقع بالطبع في مرتبة عُليا من مراتب السّلّم الحجاجيّ، ويمكن أن نتخيل أقوالاً أخرى يستلزمها القول السابق، مثل: "إنّه كريم"، إنه مضياف...إلخ، أما النّتيجة التي يقصد إليها المتكلم، فيمكن أن تكون من نمط "ما أكرمه" أو أُقصده ليحسن إليك، أو أُطلب منه مساعدتك إلى غير ذلك من النتائج الممكنة.

وتظهر في هذه العبارة (كثير الرّماد) حجاجية الاستعارة على أن صخر كان مضيافا وكريما وكذلك ما تحمله هذه العبارة من شحنة لغويّة حجاجيّة جعلت المخاطَب حين يسمعها يتأثر بالقول، وما تحمله العبارة من مَواد لغويّة تأثيريّة على المخاطَب لتحمله على هذه الصِّفات، وبهذا يمكن اعتبار الاستعارة من الوسائل اللّغويّة التي يستغلُها المتكلم للوصول إلى أهدافه الحجاجيّة، وعلى هذا يمكن التسليم بالطابع المجازي للغة الطبيعيّة، ونعتبر الاستعارة إحدى الخصائص الجوهريّة للغات الطبيعيّة.

الخاتمة: توّصلنا من خلال بحثنا إلى القول بأهميّة حِجَاجيّة الاستعارة والنّظريّة في كل الخطابات اللّغويّة ولا سيما حجاجيّة الاستعارة للغات الطبيعيّة، وبيان أهمية التحليل الحجاجيّ للخطابات اللّغويّة بمختلف أنماطها وأنوّاعها، وباعتبار الاستعارة

ذات أثر عظيم في تقوية الخطاب ويمكن اعتبار حجاجيّة الاستعارة قضية ضاربة في التاريخ.

1- تكمن سلطة الخطاب وقوة الكلام في القوة الحجاجيّة، فالحجة عنصر دلاليّ متضمن في القول يقدمه المتكلم على أنه يخدم ويؤدي إلى عنصر دلاليّ آخر والّذي يُصيّرها حجة أو يمنحها طبيعتها الحجاجيّة هو السّياق، فما يمكن أن يكون حجة في هذا السّياق قد لا يكون كذلك في سياق آخر.

2- الاستعارة لم تعد تعتبر شكلاً بلاغيًا وأسلوبيًا، أو نوعا من أنواع الزّخرف اللّفظيّ والبيانيّ؛ الّذي ينتمي إلى الأدب عامة، والبلاغة خاصة.

3- تتحدد القوة الحجاجيّة للاستعارة داخل السّلّم الحجاجيّ، ويعدّ هذا الأخير من المفاهيم الأساسية في حجاجيّة الاستعارة التي ساهمت إلى حد كبير في وصف الآليات التي تحكم الاشتغال الحجاجيّ للغة.

4- يرتبط مفهوم القوة الحجاجيّة الاستعاريّة بالسّياق ومقاصد المُتكلمين، ولا يمكن الحديث عنه خارج هذا الإطار.

5- البلاغة الجديدة استمدت في أساسها من النّظريّة الحجاجيّة؛ التي تعمل على التفاعل بين التّداوليّة والبحث البلاغيّ، وانبثقت نظريّة الحِجَاج في اللّغة من نظريّة الأفعال اللّغويّة؛ التي أسسها أوستين وسورل.

6- يعد الحجاج في البلاغة الجديدة غير ما هو عليه في البلاغة القديمة الّذي يعتبر فيها مرادفا للمنطق، والجدل، والبرهان، والمنطق الرياضيّ، والاستنتاج العقليّ، والاستلزام المنطقي المستمد من نظام المنطق. فقد أصبح للحجاج وظيفته في صميم اللّغة ليأخذ مكانة في الأقوال اللّغويّة وفي تسلسلها، وفي اشتغالها داخل الخطاب، ويكمُنُ الحجاج في شحن تلك الملفوظات اللّغويّة الاستعاريّة التي تؤدي إلى صنف معين من النتائج المؤثرة في المخاطَب.

7- أخذ مفهوم الاستعارة في الدّراسات المعاصرة أبعادا واسعة من حيث التأويل والدور الحجاجيّ وابتعد عن المنظور القديم الذي تأخذ فيه كلمة مكانة كلمة

للعلاقة التشبيهية بينهما، إلى التصوّر البعيد على مستوى الجملة، ورؤيّة شاملة ليصبح النص بنية كبرى استعاريّة تتفرع عنها استعارات صغرى.

8- تقوم القوة الحجاجيّة بالأساس على عنصري الخطاب المتخاطبين المخاطِب والمخاطَب والعلاقة التفاعليّة بينهما من خلال المواد اللّغويّة المشتغل بها.

9- يأخذ الحِجَاج اللّغويّ علاقة تراتبيّة للحجج، وتكون تلك الحجج محددة بالسّلّم الحجاجيّ إذا كان قول ما يمكن من فعل حجاجيّ؛ الّذي تكون فيه الحجج مختلفة بحيث تكون الحجة اللّغويّة (ج) أقوى من الحجة اللّغويّة (ب)، وتكون الحجة اللّغويّة (د) أقوى من الحجة اللّغويّة (ج)، في حين تعتبر جميع الحجج اللّغويّة تؤدي إلى نتيجة واحدة.

10- تعتبر الاستعارة بحق مسألة محيرة لدى كثير من الدّارسين، وبخاصة عندما أكتشف طاقتها الحجاجيّة ومكوناتها الابداعيّة وأسرارها التّأثيريّة، ويبرز جليا الدّور الحجاجيّ للاستعارة من خلال حركتيها وحيويتها، وسعة علاقاتها وتنوع دلالاتها ما يفتح الباب أمام العمليات التّأويليّة التي تحيط بالخطاب وتجعله لا متناهي الدّلالة.

الهوامش:

1- طه عبد الرحمن، اللّسان والميزان أو التّكوثر العقليّ، ط1، 1989م، الرّباط/، المغرب المركز الثقافي العربيّ، ص 213.

2- أبو بكر العزاوي، الحجاج واللّغة، منتديات سور الأزبكية، الدار البيضاء، ط1، 1426هـ-2006م، ص 16.

3- المرجع نفسه أبو بكر العزاوي، الحجاج واللّغة، ص 16-17.

4- المرجع نفسه، أبو بكر العزاوي، الحجاج واللّغة، ص 17-18.

5- ينظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنياته وأساليبه ط1 2001م، عالم الكتب الحديث، ص21.

6- ينظر المرجع السّابق، طه عبد الرحمان، اللّسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص226.

7- ينظر المرجع السابق: أبو بكر العزاوي، الحجاج واللّغة، ص 18-19-20.

8- صابر الحباشة، التّداولية والحجاج مداخل ونصوص، (د. ط)، 2008م، دمشق، منتديات سور الأزبكية ص17.
9- المرجع نفسه، صابر الحباشة، التّداولية والحجاج مداخل ونصوص، ص20.
10- ينظر المرجع نفسه: صابر الحباشة، التّداولية والحجاج مداخل ونصوص، ص20-21.
11- فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف حمادي صمود، أهميّة نظريّات الحجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانيّة تونس1، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، كلية الآداب منوبة ص299.
12- ينظر المرجع السابق: أبو بكر العزاوي، الحجاج واللّغة، ص 20-21.
13- ينظر المرجع السابق: صابر الحباشة، التّداولية والحجاج مداخل ونصوص، ص22.
14- ينظر عمر أوكَان، اللّغة والخطاب، (د. ط)، 2001م، المغرب، إفريقيا الشرق، ص124- 131.
15- ينظر المرجع نفسه: عمر أوكَان، اللّغة والخطاب، ص 133-138.
16- ينظر المرجع نفسه: عمر أوكان، اللّغة والخطاب، ص 126.
17- أمبر طو ايكو، السيميائيات وفلسفة اللّغة، تر: أحمد الصمعي، ط1، 2005م، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة ص 234.
18- ينظر: أحمد الصّاوي، مفهوم الاستعارة في بحوث اللّغويّين والنّقاد والبلاغيّين، (د. ط) 1999م، مصر، منشأة المعارف، ص 82-83.
19- ينظر: أحمد أبو زيد، الاستعارة عند المتكلّمين، مجلة المناظرة، العدد4، ماي 1991 ص46-47.
20- أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمّد الجرجاني النّحويّ، أسرار البلاغة في علم البيان تح محمّد رشيد رضا ط1، 1409هـ- 1988م، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ص15.
21- المرجع السابق، أحمد الصاوي، مفهوم الاستعارة في بحوث اللّغويّين والنّقاد والبلاغيّين، ص90.
22- ينظر المصدر السابق: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص16.
23- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح محمود محمّد شاكر، ط5، 2004م، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص67.
24- المصدر نفسه، ص367.
25- أحمد العاقد، المعرفة والتواصل، عن آليات النسق الاستعاري، ط1، 2006م، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ص 48.

26- ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل للطباعة والنشر، تيزي وزو 2005م، ص177.

27- سراج المّلة والدين أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمّد بن علي السّكاّكي، مفتاح العُلوم، تح نعيم زرزور، ط1 1403هـ-1983م، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ص 369.

28- ينظر: عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة مقاربة حجاجيّة للخطاب الفلسفي، ط1، 2009م بيروت، لبنان، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، ص136.

29- المرجع نفسه: عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة، ص154.

30- المرجع السابق: أمبر طو ايكو، السيميائيات وفلسفة اللّغة، ص235.

31- المرجع السابق: عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة، ص155.

32- المرجع نفسه: عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة، 160.

33- عبد الحّق منصف، مفارقات الخطاب الفلسفي بين الاستعمال المفاهيمي للّغة والاستعمال الاستعاري، مجلّة الفكر العربي المعاصر، العدد 100-101، بيروت، 1993م، ص65.

34- بول ريكور، صراع التّأويلات، تر: منذر عيّاشي، (د. ط)، 2005م، بيروت، دار الكتاب الجديدة المتّحدة، ص285.

35- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النّص، ط1، 1996م، القاهرة، الشركة العالمية للنشر لونجمان، دار نوبار للطباعة، ص125.

36- ينظر المرجع نفسه: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النّص، ص158.

37- بول ريكور، نظرية التأويل (الخطاب وفائض المعنى)، ترجمة سعيد الغانمي، ط1، 2000م المغرب، الدار البيضاء ص90.

38- المرجع نفسه: بول ريكور، نظرية التأويل (الخطاب وفائض المعنى)، ص91-92.

39- ينظر: عبد الإله سليم، بنيات المشابهة في اللّغة العربيّة، مقاربة معرفية، ط1، 2001م المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص63.

40- ينظر المرجع نفسه: عبد الإله سليم، بنيات المشابهة في اللّغة العربيّة، مقاربة معرفية، ص63.

41- سعيد الحنصالي، الاستعارات والشعر العربي الحديث، ط1، 2008م، المغرب، دار توبقال للنشر، ص20.

42- المرجع السابق: سعيد الحنصالي، الاستعارات والشعر العربي الحديث، ص15-16.

43- ينظر المرجع السابق: أبو بكر العزاوي، الحجاج واللّغة، ص 102-103.